العرب
الخميس 2019/12/26
السنة 42 العدد 11568

موسم جني الزيتون في تونس فرحة لم تكتمل

محصول زيت تنغصه أسعار لا ترضي المزارعين ونقص اليد العاملة

يعتبر موسم جني الزيتون في تونس من أهم المواسم الزراعية في البلاد لأنه يحرك عجلة الاقتصاد في الأرياف التونسية، ويوفر لقمة عيش للعاملين بالقطاع الزراعي وخاصة النساء رغم أنهن يعملن بأجر زهيد، هذه السنة ورغم الإنتاج الوفير إلا أن ذلك لم يبعث الفرحة في نفوس المزارعين الذين ينتظرون هذا الموسم لسداد ديونهم فالحكومة لم تسع لتعديل أسعار الزيت التي يعتبرها الفلاحون غير مناسبة مقارنة بأسعار السنة الماضية.

القيروان (تونس) - على إيقاع الحبّات السّمراء المنهمرة على البساط الأخضر، يتعالى صوت غناء مبروكة وهي تعتلي سلّما عند قمة شجرة الزيتون بمنطقة حاجب العيون، في محافظة القيروان التونسية.

يمتدّ ساعداها لتقطف ثمار الشجرة، وتشجعها النسوة العاملات معها بزغاريد تغمر الضيعة، ترافق الأغاني البدوية ترددها المزارعات في تلك الأنحاء بمناسبة موسم جني الزيتون.

مقتطفات لا تعبّر عن الفرح، بقدر ما يتسلّحن بما تنضح به من معاني الصبر على الترحال والحزن على الفراق، فتثير فيهن الشجن وتحفزهن على العمل وتحمّل مشاق عملهن وحياتهن.

في تلك المنطقة الواقعة وسط البلاد، والممتدة بين سهول سد سيدي سعد ووادي زرود الشهير وجبال مغيلة وطرزة، تشهد ضيعات الزيتون حركية في جني الزيتون، وانتشار عاملات الزراعة ممن يتراءين من بعيد وكأنهن نحل يحلّق حول الأزهار.

لا تتوقف حركة هؤلاء النساء حول شجرة الزيتون صعودا ونزولا على السلّم الحديدي أو الخشبي، يلاحقن الأغصان المتمايلة ويمددن أياديهن يتعقبن الثمار في قمة الشجرة.

يستمر عملهن، قبل أن تقطعه جولات توزيع كؤوس الشاي الساخن، أو عندما يحين موعد الطعام في حلقات حول رغيف الخبز وزيت الزيتون.

مبروكة؛ سيدة خمسينية، وأمّ لـ8 أبناء، تضطر للعمل لمساعدة زوجها في توفير مورد رزق لأسرتهما، يبدأ يوم عملها منذ ساعات الفجر الأولى، فتجهز طعام يومها وترتب بيتها ثم تسابق شروق الشمس إلى الضيعة، لتلتقي مع العاملات اللواتي يأتي بعضهن من أماكن بعيدة على متن الشاحنات.

قبل أعوام، كانت مبروكة تقطع مسافة طويلة من مسكنها الريفي للوصول إلى الضيعة، قبل أن تنتقل أسرتها للإقامة بمنزل لصاحب الضيعة لضمان قربها من الحقول.

> **أكثر من 8.8 ملايين شجرة زيتون في محافظة القيروان، منها 80 في المئة في طور الإنتاج، على حوالي 175 ألف هكتار**

وتقضي السّيدة يومها الطويل في قطف حبات الزيتون، منحنية الظهر تارة ومتسلقة السلم إلى قمته تارة أخرى، وهي تتشبّث بدرجاته بيد وتصارع أغصان الزيتون بيد أخرى ممسكة بمشط شبيه بأصابع اليد.

وتجمع النسوة ما تناثر فوق البساط في أكياس، ثم ينتقلن إلى شجرة أخرى يصارعنها، في عمل يستمر حتى اقتراب غروب الشمس.

تقول مبروكة التّي لا تتجاوز أجرة يومها 13 دينارا (نحو 4 دولارات)، إن "ما تجنيه من أجرة يومية يعدّ بسيطا ولا يكفي لإعالة أسرة تتكون من 10 أفراد ومصاريف دراسة الأبناء، مما اضطرها لفصلهم عن الدراسة الواحد تلو الآخر".

وتضيف، "جني الزيتون موسمي لا يتجاوز 6 أشهر، والعمل الزراعي غير دائم وأجرته ضعيفة، مقابل ارتفاع أسعار المواد الأولية".

أما عن الغناء الذي تترنّم به في عملها، فتقول مبروكة إنه يخفّف أعباء الحياة ومتاعب العمل، وتحرص على تسلية نفسها هي وزميلاتها من أجل عدم الشعور بالملل والإرهاق.

ومع ميلان قرص الشمس إلى الغروب، تجمع مبروكة وباقي النساء أغراضهن ويعدن إلى منازلهن على خطى الظلام استعدادا ليوم الغد الشاق، بينما ينقل المزارع الشاب فارس ثمرة جهد النساء من زيتون باتجاه المعصرة ليشهد طورا آخر.

وداخل معصرة العائلة القريبة من الضيعة، تمر عملية عصر الزيت عبر عدة مراحل وعن طريق عدّة آلات تطورت تقنياتها في السنوات الأخيرة، إلى أن تنتهي زيتا ينسكب ذهبيًا وسط الوعاء.

يقول فارس، إن محصول الزيتون والزيت لهذا العام ضعف السنة الماضية، وهو ما استبشر به المزارعون لتعويض نفقاتهم وخسائر المواسم الماضية وارتفاع أسعار المواد الأولية"، لكنه يستدرك قائلا، "كنا نمنّي النفس أن يستفيد المزارع من المحصول وأن ينتعش القطاع، لكن انخفاض الأسعار يهدد بإفلاس المزارع".

فارس شريط مزارع ثلاثيني، قاد، طيلة الأسابيع الماضية، رفقة مزارعين آخرين، احتجاجات أمام المقرات الحكومية، تنديدا بما شهدته سوق الزيتون والزيت من تدهور للأسعار جرّاء تدخل بعض الوسطاء وتجار الجملة.

ويواجه فارس صعوبات تتعلق بعدم توفّر اليد العاملة رغم تضاعف أجرتها اليومية لتصل إلى 30 دينارا (نحو 10 دولارات) ما يضاعف تكلفة الإنتاج، يقول، "أدّى عدم تدخل الدولة بتحديد السقف أدنى لسعر الزيت، إلى انخفاض الأسعار وهيمنة الوسطاء وهو ما يعني خسائر للمزارع".

ويعرض اللتر الواحد من زيت الزيتون بالسوق المحلية، بسعر يتراوح بين 5 و7 دينارات لسعر اللتر الواحد حسب الجودة، أي دون 3 دولارات.

ويضيف فارس معبّرا عن غضب المزارعين إزاء خسارة المحصول جرّاء عزوف بعضهم عن جني الزيتون، "نتجه إلى المجهول بسبب تأخر الديوان الوطني للزيت (حكومي) في وضع قاعدة تسعيرية لسعر الجملة".

ويعتبر قطاع الزيتون، بحسب المدير المحلي للتنمية الزراعية بالقيروان، عبدالجليل العفلي، من أبرز القطاعات الزّراعيّة من حيث المساحة والإنتاج، يقول، إنه توجد أكثر من 8.8 مليون شجرة زيتون بالمحافظة، منها 80 بالمئة في طور الإنتاج، على مساحة حوالي 175 ألف هكتار.

ويقدّر محصول هذا الموسم من الزيتون بـ170 ألف طن بالقيروان، ما يعطي أكثر من 35 ألف طن من الزيت، أي حوالي 15 بالمئة من الإنتاج الوطني.

وردا على احتجاج أصحاب المعاصر والمزارعين ضد انخفاض أسعار الزيتون والزيت، أفاد العفلي بأن اجتماعات عُقدت في الإبان على مستوى مركزي، لافتا إلى أنه تم الاتفاق على تدخل ديوان الزيت لشراء الزيت بمبلغ جملي يقدر بـ50 مليون دينار (17.65 مليون دولار) قصد تعديل الأسعار.

غير أن الأسعار التي أقرها الديوان الحكومي لم ترتق إلى تطلعات المزارعين وأصحاب المعاصر، إذ بقيت في حدود 4.5 دينار (نحو 1.5 دولار) للتر، وهذا ما رفضه المزارعون وواصلوا الاحتجاج.

ويشغّل قطاع الزياتين الآلاف من اليد العاملة طيلة الموسم، كما يساهم في دورة اقتصادية كبيرة بين المتدخلين طيلة نصف عام منذ انطلاق موسم الجني في أكتوبر من كل عام. وتنافس تونس بعض الدول الأوروبية في إنتاج زيت الزيتون، الذي يتميز بجودة عالية عالمية.

وفي نوفمبر المنقضي، قال رئيس الديوان التونسي للزيت شكري بيوض، في تصريحات إعلامية، إن بلاده تتوقع تصدير أكثر من 200 ألف طن من زيت الزيتون، بعائدات مالية تصل إلى 2 مليار دينار (640 مليون دولار)، مشيرا إلى وجود منافسة قوية من إسبانيا وإيطاليا.

زيتونة مباركة على الجميع

شقاء لذيذ

سوري يتحدى غلاء اللحم بزرع الفطر في إدلب

حارم (سوريا) - ينثر نصرالله، النازح في محافظة إدلب السورية، البذور بين طبقات من القش قبل أن يغلق عليها في أكياس بلاستيكية بانتظار أن تتحول خلال أسابيع إلى نباتات من الفطر الذي باتت مصدر لقمة عيش عائلته.

يقول نصرالله (43 عاما)، الوالد لثلاثة أطفال، "بات الفطر بديلا رئيسيا عن اللحوم التي ارتفعت أسعارها" في وقت يعاني كثيرون من البطالة.

منذ سنوات طويلة، يهوى نصرالله زراعة الفطر إلى أن تتحول تدريجيا إلى أحد مصادر رزقه، إلى جانب عمله كموظف في المجلس المحلي لمحافظة حماة (وسط) أثناء سكنه في بلدته قلعة المضيق في شمال المحافظة. وفي فبراير الماضي، أجبره تصعيد عسكري لقوات النظام على الفرار مع عائلته إلى مخيمات بلدة حارم في ريف إدلب الشمالي الشرقي.

وخلال سنوات النزاع، استضافت محافظة إدلب (شمال غرب) نحو مليون ونصف المليون نازح من مناطق أخرى، كما تشهد مرارا موجات نزوح داخلية على وقع هجمات قوات النظام فيها، وآخرها الأسبوع الماضي. إذ فرّ، وفق الأمم المتحدة، عشرات الآلاف من جنوب المحافظة باتجاه مناطق أكثر أمنا في الشمال جرّاء تصعيد جديد للقوات السورية.

لحمة لفقراء المخيم

وبعد نزوحه، لم يجد نصرالله سبيلا لتأمين لقمة عيشه سوى زراعة الفطر، خصوصا وأنّ "كلفتها منخفضة جدا".

يقول، الرجل الملتحي الذي رسمت التجاعيد ملامح وجهه التعب، "بتُّ أزرع الفطر هنا أيضا لنقتات منه يوميا، نأكله ونوزع ونبيع قسما منه".

> **لا تزال زراعة الفطر محدودة رغم أن البعض وخصوصا في المخيمات لجأوا إليها نتيجة ارتفاع أسعار المواد الغذائية**

في المخيّم العشوائي في حارم، ينهمك نصرالله بتحريك القش والمياه في وعاء أسود أشعل النيران تحته، مستعينا بالأخشاب وبقايا عبوات بلاستيكية.

بعد تجفيف القش، يضعه نصرالله في أكياس بلاستيكية وينثر البذور بين طبقاته، ثم يغلق الأكياس بإحكام ويضعها في غرفة مظلمة ودافئة ويتركها لفترة تصل إلى 20 يوما.

يبدأ الفطر بالنموّ خارج القش، ولمدة عشرة أيام أخرى، يرش نصرالله يوميا المياه عليه ليحافظ على رطوبته. وخلال شهر، تنتهي العملية، بقص نباتات الفطر الأبيض الخارجة من جوانب قوالب القش، ومنها ما ستطبخه زوجته وأخرى يبيعها لنازحين من جيرانه وأقربائه وسكان المخيّم.

ولجأ كثر في سوريا، وخصوصا في الغوطة الشرقية قرب دمشق خلال فترة حصارها من قبل القوات الحكومية، إلى زراعة الفطر كبديل عن مواد غذائية أخرى يفتقرون إليها. ويعاني حوالي 6.5 مليون شخص في سوريا، وبينهم العديد من النازحين، من انعدام الأمن الغذائي أو يفتقدون الغذاء الكافي.

يشتري نصرالله اليوم بذور الفطر من تركيا بقيمة تتراوح بين أربعة إلى خمسة آلاف ليرة ما يعادل 11.5 دولار أميركيا للكيلوغرام الواحد. ومن المفترض أن ينتج كيلوغرام من البذور قرابة 20 كيلوغراما من الفطر الطازج. وكونها عملية تتطلب وقتا، ينتج نصرالله أسبوعيا بين أربعة إلى خمسة كيلوغرامات فقط، يبيع الكيلوغرام منها بـ1200 ليرة (2.7 دولار)، فيما بلغ سعر الكيلوغرام من اللحمة ستة آلاف ليرة (13.8 دولار).

يقول نصرالله، "لا تزال زراعة الفطر محدودة برغم أن البعض وخصوصا في المخيمات لجأوا إليها نتيجة ارتفاع أسعار المواد الغذائية والغلاء المعيشي"، إلا أنّ إنتاجه لا يزال محدودا ولا يلبّي الطلب.

وبمساعدة ابنه سعيد (تسع سنوات)، يقطع نصرالله بسكين نباتات الفطر الأبيض التي نمت في أحد قوالب القش، يضعها في وعاء بلاستيكي أحمر اللون، ويجلس على كرسي أمام منزله بانتظار أن يمرّ زبون لشرائها.

تلقي أم خالد (65 عاما) نظرة سريعة على الفطر، تعطي نصرالله ثمنها ثم تتوجه إلى منزلها، وهي التي باتت خبيرة في طهي الفطر، تشويه أحيانا وتضيف عليه البصل حينا آخر، أو الثوم وعصير الليمون.

في منزلها الطيني المتواضع الذي تقطنه مع عشرة من أفراد عائلتها، تجلس أم خالد على سجادة بنية على الأرض، تقطع الفطر على لوح خشبي ثم تضيفه إلى السمن والبصل في قدر وضعته على بابور غاز صغير.

بعد وقت قصير، تفرغ المرأة، التي فقدت أسنانها وملأت التجاعيد وجهها، طبختها البسيطة في ثلاثة صحون صغيرة تضعها إلى جانب صحن واحد من البطاطس المقلية والخضار. وتنتهي بذلك وجبة الغذاء.

تقول أم خالد، "اللحم والفرّوج أفضل حقيقة، لكن لا قدرة لنا نحن النازحون على شرائها".